كيف تولدت الطيور

لا يخفى ان في تولد انواع الحيوان مذهبين الاول انها خُلقت وكل نوع منها قائم برأسه بمميزاته وان ما بينها من التشابه انما كان لان خالقها اراد ان يكون بينها هذا التشابه من بعض الوجوه كما اراد ان يكون بينها اختلاف من وجوه اخرى لاغراض لا نعلمها. والثاني ان انواع الحيوان متولدة كلها من اصل واحد او بضعة اصول وان ما بينها من التشابه دليل على وحدة اصلها وما بينها من الفروق عرَض تولد فيها لاختلاف المؤثرات الخارجية كما تتولد المميزات في افراد النوع الواحد باختلاف الامكنة والمؤثرات. وعلى هذا المذهب الثاني اكثر علماء الطبيعة وهم يقولون ان الطيور تولدت من الزحافات المعروفة بالعظايات. وقد وضع بعضهم رواية فكاهية عبّر بها عن كيفية هذا التولد على اسلوب بديع قال:

حدث منذ عشرين مليوناً من السنين ان ذكراً وانثى من العظايات الكبيرة تزاوجا واستقرّا في احد السواحل البحرية في غربي اوربا وكان لكلٍّ منهما رأس كبير طويل مستدق كمنقار الطائر ويدان طويلتان ورجلان قصيرتان والذكر منهما اكبر من الانثى جسماً واشد عضلاً فعاشا كلاهما بالوفاء والصفاء على احسن حال في ذلك العصر وهو العصر الثاني من العصور الجيولوجية. وكان غارهما شديد الرطوبة ولكن رطوبته لم تضرّهما بل نفعتهما ولا سيما بعد ان علا النبات حوله وصار يحجبهما عن الانظار

ولم تمضِ ايام كثيرة حتى ولدت الانثى ولداً ذكراً فاحتضنته كالام الرؤوم ورآه ابوه واجبه وجعل يسعى لزوجته وولده ثم اكتسب هو وهي ان تي ولدها شيئاً لم يرياه في اولاد غيرهما من العظايات وهو عشاءان لحيان صغيران يمتدان من يديه الى حقويه. فجعلا يفكران في امر هذين العشائين ولا يدركان المراد منهما ولا كيف تولدا الاّ ان ذلك لم يصرفهما عن حب ولدهما لان الولد فلذة من الكبد. ولما رأيا ان هذين العشائين كالجناحين سمياه ابا جناح ولم يكن في الارض حيوان مجنّح غير الحشرات

وشبّ ابو جناح شديد الاعصاب قوي العضل والفخر والذكاء يطير جعلا يطيران سعياً في طلب الرزق ويأخذانه معهما يعلمانه الصيد والقنص. ولم يكن العصران شديداً بين الحيوانات في تلك الايام لانها كانت تعلم ان بعضها خُلق لبعض أكلاً فاذا التقص الكبير منها الصغير خضع الصغير لحكم القدر. ورأى ابو جناح من والديه عضداً له فاغترّ بنفسه ولم يعد يحسب لغير الايام حساباً. وظلّ على هذه الحال والخيلاء ملء دماغه الى ان رأى

عظاية من نوعها في وبعان صباها فشغفت ليهُ وكاشفها بما في فؤاده فنظرت الى جناحيهِ وتبسمت ثم قالت لهُ لا تنتظر مني وصلاً ما لم ارَ منك فعلاً تمتاز بهِ على اقرانك

فقال لها اذا كان الامر كذلك فستريني مني ما تفتخر كل زوجة ان تراهُ في زوجها . واخذ من ذلك الحين يفكر في طريقة يظهرها بسالتهُ حتى ترغب حبيبتهُ فيهِ

واتفق ذات يوم انهُ كان واقفاً على قمة اكمة فرأى وحشاً كبيراً يدنو منهُ وهو طويل العنق هائل الجثة جسمهُ مغطى بحراشف كبيرة صفيقة كالدروع وذنبهُ طويل غليظ يستدق رويداً رويداً حتى يصير كالقصبة وهذا الوحش من نوع العظايات ولكنهُ من اكبرها جسماً واشدها بطشاً فلما ابو جناح انهُ اذا قبض ذلك الوحش عليهِ لم يكن الاَّ نقمةً في فيهِ . وكان ابواهُ قد علماهُ ان يهرب من وجهِ حيثما رآهُ والاَّ قضي عليهِ اما الآن فلم يرَ الى الهرب سبيلاً لان الوحش باغتهُ مباغتة فشلَّ اعصابهُ . ولكن المصائب تنتج الغرائب والحاجة تنتق الحيلة فتحدث حينئذٍ ما لم يحدث في عالم الزحافات من قبل فانهُ لم يكد ذلك الوحش يمد عنقهُ ليلتهم ابا جناح حتى بسط ابو جناح ذراعيهِ ووثب طالباً الفرار وجعل يرفرف مسرعاً خوفاً من عدوهِ فحملهُ الهواء كما يحمل الحشرات . فثبت لهُ حينئذٍ ان ذينك القشائين اللذين لم يعلم لهما نفعاً قد انقذاهُ من الهلكة . ورأت العظايات ابا جناح طائراً في الجوّ فدهشت مدهوشة لانهُ اول حيوان طار في الهواء . ولم يكد يصل الى الارض حتى علم انهُ اتى من الفعال ما لم يأتهِ غيرهُ من الاقران واجتمعت العظايات حولهُ تسمع قصتهُ مع الوحش وتنظر الى جناحيهِ مدهوشة وطلبت منهُ ان يجرّب الطيران امامها ففعل وطار فوق رؤوسها ثم عاد الى المكان الذي طار منهُ والعيون شاخصة اليهِ . وكانت حبيبتهُ بين الجماعة وقد خفق فؤادها حبًّا وسروراً فلم يكن الاَّ ايام حتى اقترنا ثم ولد لهما ثلاثة اولاد ولكلٍّ منها المزية التي كانت للوالد اي غشاء ان صفيقان من ذراعيهِ الى حقويهِ . وتوالد نسلهما دهوراً طوالاً وهذه الخاصة فيهِ الى ان ولد لهُ اولاد على اجنحتها ريش وهي الطيور المعروفة . وقد حدث هذا كلهُ منذ الوف وملايين من السنين والآثار المتحجرة في الارض تدل على ذلك كما تدل آثار الميا كل المصرية القديمة على السكان الاقدمين وعمرانهم

ويقول علماء الطبيعة ان التغير يحدث في الافراد من وقت الى آخر فاذا نفع لحفظ الفرد وظهر في نسلهِ بالوراثة استمرَّ فيهِ وقوي رويداً رويداً بالاستعمال حتى يصير من المميزات او المقومات للنوع فيصير نسل ذلك الفرد نوعاً قائماً برأسهِ لكن الاختلاف الطبيعي لا يرسخ في النسل ويصير من مقومات النوع الاَّ بعد دهور طوال